

التاريخ المركب

واذ نحن نأثرون الى البيت قال فيليب : لقد اصاب الشيخ ، فأن كل هذه النظريات في التاريخ لائحة لها اذا أخذت فرادى ، وإنما تعقل بحسنة ، لقد تميت من التحليل ، ونقذت الى التركيب دورانت : ان عقل ما قبل اليلة هو ما اورده ثولير . وهو : يجب ان يكتب التاريخ باقلام للفلاسفة ، لانهم يرون الاشياء في مجموعها . هذه هي خلاصة القول اربل : ولكنك نسبت سعة ميدان التاريخ فليس ثمة أحد يستطيع ان يبش لبراه كلة ولو كان من البائين

دورانت : هذا صحيح . فيلزمنا اخصائون ، عدون الفلاسفة بالمادة التاريخية ، كما يدونهم بالمادة العلمية . وفي كلا الحالين يفضي بنا الامر الى الاضطراب الهدام ، اذا لم تضم الوحدة اشياء المعارف . ويجب ان تكون الفلسفة لتاريخ ما تكونه لعلم ، أي تنظيم المعارف وتنسيقها سرنا مسافة سكرى بخمرة الآلة والنجوم . واخيراً قطع فيليب سكوتاً بقوله : — اندرون ان في هذا البحث الماعاً الى النسق الجديد الذي يجب ان يكتب به التاريخ . فقد جرت المادة على انه اذا كتب الانسان تاريخ اليونان مثلاً فإنه يعني بتاريخ حياتهم السياسية — او على الاكثر بتاريخ حياتهم الاقتصادية والسياسية — ثم يكتب مؤرخ آخر حياة اليونان الصناعية والتجارية ناظراً فيها نظرة اقتصادية « كزمرن » وينحنا غيره بتاريخ اليونان اليونانية وآخر بتاريخ الفلسفة اليونانية ، او الآداب اليونانية . ويتنظر سنا ، نحن الطلاب ، ان نجميع هذه الشذرات معاً ، نؤلف من مجموعها صورة تامة للحياة اليونانية المركبة . فملينا ان لعل ما كاد يحسب عملاً متعزراً ، حتى على مؤرخ كبير . ففي هذه التواريخ تقسم حياة الامة الى قطع وتفصل كل قطعة منها عن اخواتها فصلاً مصطنعاً . فندرسها درساً مدققاً ، باعتبار اقسامها ، ملاحظين علاقاتها الزمنية (اي تتابعها) ، معرضين عن روابط التأثير المتبادل بينها ، بزاعاً احياناً وتعاوناً احياناً اخرى . انها والله طريقة عميية لوصف الماضي ! اربل : هذا تاريخ مزق الاوصال

دورانت : ليس للفلاسفة جرأة في عصرنا هذا . فترام يختارون اعمالاً تافهة — فيحئون مثلاً هل ماعناه افلاطون هو (ب) او (ج) وهل الشمس في قبة الفلك او في عقولنا

وهل البرتقالة صفراء في النسق او غير صفراء ؟ وانظن انهم يحشون ان ينظروا في شؤون الكون منذ ما فرضت عليهم الكنيمة ما يفكرون به

فيليب : وعندى رأي آخر . وهو ان التاريخ كما يكتب الآن كثير الاقسام . فتأخذ انت فرعاً منه كالسياسة ، او الفلسفة ، او العلم . وتأثر تطوره ونموه مدى عهد طويل . ولتدع ذلك تاريخاً مزمقاً ، كما قالت اربل . فلماذا لا نضيف الى ذلك (وقد سلطنا بلزوم هذا الدرس الخاص) نوعاً من التقسيم التاريخي ؟ فيختار الانسان قرناً واحداً ، او جيلاً واحداً ، فقط ، كعصر بركليس او عصر فولتير . ويتقيد به . ثم يشرع يكتب تاريخ كل احوال الامة في ذلك العصر من وجوهها الاقتصادية والسياسية والعسكرية والعلمية والفلسفية والدينية والادبية والحلقية والروائية والفنية ؟ ومن مصائبنا اننا متأرون بفكرة النشوء تأثراً كبيراً . فنفكر في كل شيء وكأنه تيار مستمر . فيه الحوادث تسبب الحوادث التابعة لها وتصل بها . فزعمهم مثلاً ، ان فلسفة افلاطون سليلة فلسفة سقراط ، وان فلسفة ارسطو نتاج فلسفة افلاطون ، وان فلسفة سينيوزا مبيدة عن فلسفة ديكارت . على ان هنالك نوعاً آخر من السببية . فليست الحوادث نتيجة احوال سلفت فقط ، في مبدائها الخاص ، بل هي ايضاً نتيجة الاحوال المحيطة بها ، في مبادئ اخرى . فقد تكون فلسفة افلاطون متأثرة برأى سقراط اقل من تأثرها بالتقدم السياسي والاقتصادي في عصر افلاطون — اي بالاحاديث التي سمعها في السوق وفي الملاعب او بالانصاب التي شاهدها في المياكل والساحات . وقد يكون ارسطو طالس مقبلاً فكره عن اصدقائه المكدونيين اكثر من اقتباسه اياه من اساذمه في الاكاديميا

اربل : حسن جداً يا فيليب لقد اجدت

فيليب : لا تهزأي بي يا اربل ، ففي اودان ارى التاريخ يكتب بهجته ، اريد ان ارى جهود الرجال والنساء في العصر الواحد محبوكة مما تواف وهدنة وتبين ارتباط تلك الجهود بعضها ببعض ، وبوجود تفاعلها المتبادل . اريد ان ارى للماضي ممثلاً كما هو — كتلة واحدة . نختد في عصر نابليون ، وانظري كيف تتوقف احواله السياسية ، كل التوقف ، على احواله الاقتصادية وكيف حكم على مصير حروب نابليون بالذهب الانكليزي وكيف كان رويشله كائناً وراء ولنقمن وكيف صوّرت الآداب حوادث العصر الدينية والسياسية ، كما في كتابات شيلي وبيرون وشاتوبريان ، وكيف أخذت الموسيقى الآن مسحة بطولية وغرامية ، وكيف صوّرت «توفن» في ألمانيا ، نزعات الثورة وعظمة نابليون تصويراً محسوساً . فقد كان العصر كله واحداً في فرنسا بل وفي كل اوروبا غرب روسيا . فاننا اروم تاريخاً للثلاث العصر

الماضي مترابط الاقسام كما كانت في حينها

اريل : انك تطلب امراً عظيماً. ولهذا متعذر

دورانت : قد يكون ذلك متعذراً. ولكن الاترون انه قد يمكن درس كل موضوع في عصر واحد، كما يمكن درس موضوع واحد في كل الصور. ويجب ان تكون كتابة التاريخ لعصر فوثير ممكنة كما كتب جيون قيام الامبراطورية الرومانية وسقوطها او كما كتب «جروت» تاريخ اليونان او كما كتب ثولير «ملخص في الاخلاق». وقد عمل سيندز، بعض ما تطلبه يا فيليب لما كتب سبع مجلدات في «تاريخ عصر الاجياء» Renaissance

فيليب : نعم وهو كتاب نفيس وانا اروم ان يؤرخ كل عصر على هذا النسق. واذا كان لنا تأليف من هذا الطراز ازداد فهنا للتاريخ واصبنا رجلاً اقرب الى الكمال. والجوتيد وليوناردو وارسطو — آلهة النظر الشامل

اريل : وماذا لا تكتب تاريخاً كهذا يا فيليب. النسق هو كل شيء. فاكتب اذا امكنتك فيليب : احب ان اكتب تاريخ القرن التاسع عشر على هذا الاسلوب حاصراً بمجى في اوربا لا يمكن من تحقيق بض غرضي. وحتى هذا كثير في مدى حياة رجل واحد. قد يمكننا نحن الثلاثة انجازها معاً. افنساعدتنا في ذلك يا اريل ؟ تأمل في ذلك القرن اية رواية هو ؟ انها في اربعة فصول. اولها : عصر نابليون. وثانيها : العصر الرومانتيكي. وثالثها : العصر الواقعي. والرابع : عصر الزراعة الامبراطورية وما يتصل بها جميعاً من اعلام الموسيقين والصورين والكتابات والشعراء والنقاد والفلاسفة والعلماء والمستطيين. ورجال السياسة والحرب. وما تنطوي عليه من تحوّل في نظريات العلم ومذاهب الفللفة والاجتماع وطرائق التعليم واساليب الحكم ووسائل المعيشة والصناعة : بهذا الحال لو يجمع كل ذلك معاً في صورة واحدة نابضة بالحياة — حياة اوربا اليقظة العظيمة المتقدة في خلال القرن التاسع عشر

اريل : فلنقم بالمثل. انا اكتب ما يختص بالشخصيات النسائية متى نبتدى ؟

فيليب : تحداً ترى

اريل : ولكن عمه امر واحد تركني غير راضية يتعلق برويتنا الاجياء هذه الليلة. فاسم لم يقولوا لنا هل في التاريخ ارتقاء او هل تقدر ان تسكن بمصير السران في المستقبل

فيليب : املنا زاهم ثانية

حنا خباز

مصر

بصرف زهيد